# الفكر الإصلاحي الجزائري في "الشهاب" ودوره في مقاومة مظاهر الانحراف الديني والاجتماعي

**د. زرارقة الوكّال**
**جامعة عمار ثليجي- الأغواط- الجزائر**

تعد دورية "**الشهاب**" التي أصدرها الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة 1925م من أهم الدوريات الإعلامية التي عرفتها الساحة العربية في القرن العشرين، فقد احتوت خلال الأربع عشرة سنة من صدورها على مادة أدبية وسياسية وفكرية واجتماعية غنية شكلت فيما بعد رصيدا ومرجعية هامة عكست المستوى العلمي والثقافي والفكري الذي تميزت به الساحة الثقافية في الجزائر في تلك الفترة. وقد اعتمدت في آداء رسالتها على أشكال فنية تعبيرية بقصد الوصول إلى أهدافها وغاياتها، ومنها المقال الذي عالج موضوعات أدبية وسياسية واجتماعية ودينية وجسد ثروة فكرية تغييرية بهدف إصلاح وبناء الإنسان الجزائري وإعادة تأهيله لإقلاع حضاري جديد.

وقد عنيت "**الشهاب**" بالمقالة الإصلاحية بشكل بارزٍ، وأوضح دليل على ذلك هذه المادّة الضخمة والغزيرة المنشورة فيها، و لم يكن هذا الاهتمام حكرًا عليها فقط بل إنّ المقال الصحفي الجزائري بصفة عامة كان مهتمًا بالإصلاح الديني، وذلك بسبب أنّ التأخر الذي أصاب الأمّة الإسلامية، والوضع المزري الذي تعيشه يرجع إلى ما أصاب دينها الذي حاصرته الخرافات والبدع وطمست معالمه، لذلك كان واجب رجال الإصلاح في الأمّة منصبًا على تنقيته من الخرافات والضلالات والبدع، وإعادة بريقه وإفهام النّاس حقيقته حتى يكون لهم تصورٌ صحيحٌ وفهمٌ عميقٌ له فتنطلق الأمّة بتمسكها بدينها وتطبيقه في واقع حياتها نحو التطور والتقدم كما حصل لها في أول عهدها ولذلك وجدنا شعار "**الشهاب**" المجلة "مبدؤنا في الإصلاح الديني والدنيوي: "لا يصلح آخر هذه الأمّة إلاّ بما صلح به

أولها". ويعد صاحب "**الشهاب**" ومنشئها "**عبد الحميد بن باديس**" من أكثر الكتـــاب في هذا الاتجاه فقد كان ينشر كلّ شهر مقالاً دينيًا عكس من خلاله منهجه الفكري في التغيير في بابٍ عنونه بـــ"**مجالس التذكير**" وقد نشر ما يقارب المائة وخمسة عشر موضوعًا، وهي مادة ضخمة وغزيرة جمعها الدكتور "**عمار طالبي**" في كتابه "**آثار عبد الحميد بن باديس**" كما جمعتها وزارة الشؤون الدينية في كتابين الأول "**مجالس التذكير من كـــلام الحكـــيم الخبير**" والثاني "**مجالس التذكير من كلام البشير النذير**".

وكان "**ابن باديس**" في مقالاته الإصلاحية الدينية يتخذ من المادة الدينية وسيلة لتعليم الشعب وإيقاظه من نومته التي كان يغط فيها[1]، فالمقالة الدينية هي وسيلة من وسائل "**ابن باديس**" في إعادة الأمّة إلى سبيل ربّها بعد ما تفرقت بها السبل وتاهت في دياجير الجهـــل والضلال وكمثال على ذلك مقالته التي عنونها "دفاع الله عن المؤمنين" والتي فسرّ فيها قوله ﷻ: ﴿ **إنّ اللهَ يُدافِعُ عن الذينَ آمَنُوا إنّ الله لا يُحِبُ كُلَّ خَوانٍ كَفُورٍ**﴾[2]، فقد بـــدأ تفسيره لهذه الآية بشرح كلمتي يدافع – خان، ثمّ بشرح تراكيب الآية لينتقل بعد ذلك إلى تفسيرها وتعليل ما فسّره ليبرز بعدها معنى الخيانة ويتوقف عند حال المسلمين من خـــلال مضمون الآية وينبه ويحذر من الخيانة وعواقبها ويجيب بعد ذلك عن سؤال محتملٍ قد يتبادر لذهن القارئ مفاده قد نجد من عباد الله من يصيبه البلاء والشدّة فيعذب وقد يقتل وكأين من نبي قتل، وقد أصاب المؤمنين يوم أحد ويوم "**حنين**" ما أصابهم[3] ويختم مقاله الـــديني بمشاهدة وتوصية دعا فيها المسلمين إلى الإيمان بالله والمحافظة على عهده والثقة به فإنّ ذلك يحقق وعد الله بالدفع وينيل أهله العزّة والحفظ " لّما كان المسلمون أهل الإيمـــان الصـــدق الشكر والأمانة دافع الله عنهم وقد شهد التاريخ بذلك من الله لهم فلمّا خـــانوا وكفـــروا تركهم ومكن منهم، ولكنهم برحمته وعدله لم ينس لهم أصل إسلامهم فأبقى لهـــم أصـــل وجودهم الذاتي وهم لحمٌ على وضمٍ بين الأمم لا يستطيعون دفعًا عن أنفسهم، وأبقى لهم أصل وجودهم الروحي بكتابه المتلو بين ظهرانيهم رغم إعراضهم من تدبره وهجرهم لمـــا فيه، عساهم يرجعون"[4].

فنلاحظ من خلال هذا الأنموذج المقالي الديني بأنّ "**ابن باديس**" حاول تطبيق هذا النص القرآني على واقع الأمّة ليخلص إلى النتائج الآتية:

1. تقديم أسباب دفع الله للمؤمنين بالإيمان الصادق والشكر والأمانة.
2. نبذ الخيانة والكفر.
3. التمييز بين البلاء والابتلاء، فما يصيب المؤمنين أحيانًا من ابتلاء إنّما العبرة منه تقوية خلق الصبر والثبات وتنبيههم إلى مواطن الضعف فيهم فيتداركوا أمرهم بالإصلاح أما البلاء فمصدره البعد عن سبيل الله والتفريط في عهده.
4. ربط المسلمين بكتاب الله ليتدبروا من خلاله واقعهم المريض فيهبوا إليه لاستمداد وصفة دوائهم وأن لا خروج ممّا فيه إلاّ بالرجوع إليه.

و كمثال ثان للفكر التغييري عند "**ابن باديس**" نعرض مقاله الذي شرح فيه حديثًا للنبي ﷺ حول مجالس العلم والإقبال عليها والإعراض عنها فقد بدأ شرح الحديث بمعالجة سنده وألفاظ متنه وبيان مضمونه ثمّ عرض لتأويله ليخلص في الأخير إلى فوائده وهي:

" **الأولى**: الجلوس في المساجد حلقًا للتعلم والتعليم.

**الثانية**: تعليم النّاس ووعظهم وإرشادهم في المساجد، وهذان مما أجمع عليه المسلمون في جميع الأعصار والأمصار وجرى عليه عملهم وعُلم بالضرورة عندهم فلا يتعرض لهم فيها إلاّ ظالم من شرّ الظالمين، له في الدنيا خزي وله في الآخرة عذاب عظيم.

**الثالثة**: التحليق للعلم وتنظيم الحلقة وسدّ فرجها فهي في ذلك كصفوف الصّلاة فيجوز التخطي لسدّ الخلل كما فعل الأول ويجلس خلفها إذا لم يكن موضعٌ فيها كما فعل الثاني.

**الرابعة**: فضل الإقبال على مجالس العلم وكراهة الإعراض عنها إلاّ لعذرٍ.

**الخامسة**: بيان أحكام الأعمال التي تقع أمام النّاس حين وقوعها ليرسخ علمها ويتعظ بما فيها.

**السادسة**: لوم من زهد في الخير و لم يحرص عليه وإن لم يكن ذلك الخير من الواجبات عليه في تلك الحال"[5].

و قد اشتهر كتاب آخرون في "**الشهاب**" بمعالجة المقالة الإصلاحية الدينية منهم "**أبو يعلى الزواوي**" ومن مقالاته "**أزمة ذبائح أهل الكتاب**"[6] "**الألقاب والرتب من التنافس في الخلال الحميدة**"[7]، "**بعض آثار الجهل في مجتمعنا**"[8]، "**حول إيراد الخطباء الحديث**"[9]، "**ذكر الخلافة والإمامة العظمى**"[10]، "**المتصوفة مبتدعون في كثير من تصوفهم**"[11]، "**مراتب العبادة ثلاث**"[12]، "**الوهابيون سنيون**"[13].

و من الكتاب الذين وجدنا لهم مادة من المقالات الإصلاحية الدينية "**عمر بن بسكر**" منها "**الأمراض الفاشية في الإسلام**"[14]، "**توحيد الله تعالى**"، و"**العربي بن بلقاسم التبسي**" "**الإضرار بالدين بسم الدين ووجوب ثبات المصلحين**"[15]، و"**الطيب العقبي**" "**الرهبانية في الإسلام**"[16].

و هذه العناوين هي على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر فهناك مجموعة أخرى من المقالات الإصلاحية الدينية لكتاب جزائريين وغيرهم من أدباء وعلماء مشرقيين تدلّ على ثراء هذا الاتجاه الفكري الإصلاحي في فن المقال وعلى سعة الثقافة الدينية والصحوة الإسلامية التي ميزت فترة صدور "**الشهاب**" وتعكس فشل السياسة الاستعمارية في جمود هذا الجانب الأساسي من حياة الأمّة.

و المتتبع لتاريخ الحركة الإصلاحية الجزائرية، يجد بأنها كانت تهدف إلى إصلاح الوضع الجزائري الداخلي أولا وقبل كل شيء، وهي وإن رأت هذه النظرة فإن ذلك منها لم يكن استبعادا للواقع الاستعماري بقدر ما هو تمثل له، ووعي بطبيعته، فقد أدرك رجالات الإصلاح تمام الإدراك بأن التحرر من الاستعمار، ولا سيما الاستعمار الفرنسي، إنما يجب أن يبدأ من تحرر النفوس من ذل التبعية والتقليد، وأن الشعور بالمميزات الشخصية هي التي تحفظ للشعب ذاتيته، فيضحي بالتالي في سبيل الحفاظ عليها والدفاع عنها بكل ما يملكه من نفس

ونفيس([17])، ولذلك وجدنا بأن الإصلاح هو من الغايات والأهداف السامية التي نشدتها "**الشهاب**"، إن لم نقل بأنه كان غاية الغايات. وقد اعتمد "**ابن باديس**" سلاح العمل الصحفي وسيلة له في مواجهة الواقع الصعب الذي أصبحت الأمة تعيشه من جهل وتخلف واعتقادات فاسدة وانتشار للبدع والضلالات، وسكون وخمول وانقياد للآخر وقابلية لما يفرض عليها من سياسات ورضا بالواقع المعيش. والإصلاح عند "**ابن باديس**" هو القيام بعملية تغييرية شاملة ترمي إلى تقويم الإعوجاج في العقيدة والعبادة والسلوك بالرجوع إلى كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وسيرة السلف الصالح من هذه الأمة "إن القرآن الذي كون رجال السلف لا يكثر عليه أن يكون رجالا في الخلف لو أحسن فهمه وتدبره وحملت الأنفس على منهاجه."[18] فالقرآن الكريم عند "**ابن باديس**" هو وسيلته الرئيسية في إحداث انقلاب فكري وروحي في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية، و لم يكن هذا هو إيمان "**ابن باديس**" لوحده بل هو إيمان كلّ رجال الإصلاح الذين آمنوا بأنّ القرآن الكريم هو مصدر إلهاض وإسعاد، يتساءل "**الإبراهيمي**" "كيف يشقى المسلمون وعندهم القرآن الذي أسعد سلفهم؟ أم كيف يتفرقون ويضلون وعندهم الكتاب الذي جمع أولهم على التقوى؟ فلو أنّهم اتبعوا القرآن وأقاموا القرآن لما سخر منهم الزمان وأنزلهم منزلة الضعة والهوان"[19]، ولتحقيق الإصلاح المرجو جندت "**الشهاب**" للقيام بهذه المهمة في الميدانين الديني والاجتماعي بشكل خاصٍ.

ومن المشاكل الصعبة التي واجهت الفكر الإصلاحي في عمليته التغييرية والإصلاحية للمجتمع الجزائري ما آل إليه وضع الأمّة من تخلف حضاري عامٍ وشاملٍ مسّ دينها ومعتقدها، فانزوت بعيدة عمّ يجري في واقع النّاس وتمسكت بتدين ظاهري بعيدٍ كلّ البعد عن الأهداف السامية للعقيدة الإسلامية، حتى صار تدين المجتمع عامة آخذًا طابع الوراثة والتقليد والجمود لا أكثر، واحتجب بذلك المفهوم الصحيح لحقيقة الدين الإسلامي عن عقول النّاس، واختفى التصور السليم لجوهر العقيدة. وحلّ محلّه اعتقاد النّاس بضلالات وبدع رأوا فيها بأنّها هي الدين الصحيح، وشاعت عندهم مفاهيم تدعو إلى الجمود منها "**اعتقد ولا تنتقد**" و"**نأكل القوت ونستنى في الموت**" وغيرها ممّا شاع في المجتمع الجزائري من مفاهيم سلبية. ووصل الفكر

الإصلاحي إلى قناعة أنّ عملية الإصلاح والتغيير في أي أمّة والإقلاع الحضاري لها لا يمكـــن أن يكتب له النجاح في بيئة وواقع مليء بالبدع والضلالات، ولذلك فإنّ العملية الإصلاحية الـــتي بدأها رجال الإصلاح لواقع أمّتهم استلزمت منهم تطهير الواقع من العقائد الفاسدة والخرافـــات والرجوع إلى العقيدة الإسلامية الصحيحة لضمان نجاحها.

و لم تقتصر عملية الفكر الإصلاحي على تقويم العقيدة وما التصق بهـــا مـــن بـــدعٍ وخرافات وضلالات، والمساهمة في الإصلاح الديني القائم على وجوب الرجوع بالإســـلام إلى أصوله الأولى "الكتاب والسنّة ووعمل السلف الصالح"، وإنّما تعداه إلى التعليم العـــربي لأنّه يمثل السبيل الوحيد إلى الإصلاح الديني والفكري ولأنّ الحركة الإصلاحية لا يمكن لها أن تحقق غايتها إلاّ إذا كانت مصحوبة بحركة تعليمية سليمة، وقد عني الفكر الإصـــلاحي بجانب إصلاح التعليم وقد صادفتنا مادة من الموضوعات اهتمت به لأنّه يمثل ركنًا أساســـيًا من أركان إصلاح الأمّة والأخذ بيدها إلى بر الأمان، وانتشالها من وحل الجهل والظـــلام. ومن المقاليين البارزين في " **الشهاب**" الذين اهتموا بعملية إصلاح التعليم "**عبد الحميد بن باديس**" الذي رأى في مقال له بأنّ إصلاح التعليم هو أساس الإصلاح وأنّ العملية التغييرية في الأمّة لن تعرف طريق النجاح إلاّ إذا صلح العلماء فهم قلبها المحرك وبدرجـــة علمهـــم وتكوينهم ووعيهم تكون الأمّة " لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم فإنّما العلمـــاء بمثابة القلب إذا صلح صلح الجسد كلّه وإذا فسد فسد الجسد كلّه، وصلاح المسلمين إنّما هو بفقههم الإسلام وعملهم به وإنّما يصل إليهم هذا على يد علمائهم فإذا كان علماؤهم أهل جمود في العلم وابتداع في العمل فكذلك المسلمون يكونون فإذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم"[20]، وأكد في مقاله على أنّ عملية إصلاح العلماء ليكونوا نافعين للأمّة لن تتمّ إلاّ إذا صلح تعليمهم، فالتعليم في نظر "**ابن باديس**" "هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره."[21]، ثمّ يبين طبيعة التعليم الذي يريد أن يصلح فتنتفع به الأمّة وتغير من حالها ووضعها " ونعني بالتعليم التعليم الذي يكون به المسلم عالمًا من علماء الإسلام يأخذ عنه النّاس دينهم ويقتـــدون بـــه"[22]،

ويرى "**ابن باديس**" أنّه لا يمكن إصلاح التعليم وأداء دوره الحضاري في نشر العلم والمعرفة إلاّ إذا أرجع إلى ما كان عليه في عهد الرسول ﷺ "و لن يصلح هذا التعليم إلاّ إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه ومادته وصورته فيما كان يُعَلِمُ ﷺ وفي صورة تعليمهِ فقد صحّ عنه ﷺ فيما رواه "مسلم" أنّه قال: [ إنّما بُعِثْتُ معلِمًا...] فماذا كان يعلم وكيف كان يعلم"[23]. وقد بنى "**ابن باديس**" قناعته في وجوب إصلاح التعليم على ما كان عليه التعليم في عهده وقبل عهده لأنّه لم يأت بالثمار المرجوة منه للأمّة ومن ثمّة كان من الضروري إصلاحه وقد أبرز ذلك في مقال له بعنوان: "**إصلاح التعليم بجامع الزيتونة عمّره الله**" حيث اقترح جملة من الاقتراحات للتحسين من مردودية التعليم، وجعله مثمرًا ونافعًا وبيّن في اقتراحه على تقسيم التعليم إلى قسمين: قسم المشاركة، وقسم التخصص، فيدرس المتعلم في القسم الأول المواد الدينية والعلمية ويركز في القسم الثاني على تدريس المتعلم مواد اختصاصه، فالمتخصص في القضاء والفتوى مثلاً يوسع له في فقه المذاهب والفقه العام ودراسة الآيات والأحاديث والأحكام وعلم التوثيق وعلم الحساب وعلم الفرائض.

و من المقاليين الذين اهتموا بعملية إصلاح التعليم الكاتب "**مصطفى بن شعبان**" الذي انتقد التعليم وطريقته في عهده ويصف برامجها بقوله: " أولئك أصحاب البرامج العتيقة التي أكل عليها الدهر وشرب وأخنى عليها الذي أخنى على لبدٍ وأصبح عدمها أحسن من وجودها" [24]، ودعا إلى تجديد برامج التعليم وعصرنتها بحيث تجمع بين التعليم الديني والعلمي ورأى بأنّ ذلك فرض عين " ومن الفروض العينية أن تكون برامج المدارس غير خالية من الطبيعة والهندسة والكيمياء والجبر والجغرافية والتوحيد والفقه والصرف والنحو والمعاني والبيان والإنشاء والخط واللّغة والتاريخ وفي مقدمة كلّ هذه العلوم الجديرة بالاهتمام القرآن العظيم وما أدراك ما هو"[25]، وسمى ذلك بالتعليم العصري الديني، وفائدته أنّه يرتقي بالمتعلم دينيًا وأخلاقيًا وعلميًا، ودعا في اقتراحاته الإصلاحية للتعليم إلى ضرورة تعلم اللّغات على أن يكون الاهتمام باللّغة العربية في المصف الأول " أمّا تعليم

اللّغات فنحض عليه وندعوا إليه بشرط أن تكون العربية هي الأولى ولا نوافق أو نرضى بأن تكون في زوايا الإهمال وتفوز عليها غيرها من اللّغات الحية أمثالها"[26].

و هناك مقال آخر نشرته "**الشهاب**" دعت فيه إلى ضرورة تعلم اللّغة العربية لأنّــه لا يمكن للشعب أن يفهم دينه إلاّ إذا تعلم لغته "هذا الدين العالي لا يفهمه الجزائريون إلاّ بفهم لسانه العربي الذي هو لسانهم القومي إلاّ أقلية ولسانهم الديني بدون استثناء، فمن الضروري لتهذيبهم وترقيتهم أن يتعلموا هذا اللّسان"[27]، ودعا صاحب هذا المقال كذلك بالإضافة إلى تعلم اللّغة القومية إلى وجوب تعلم اللّغات الأخرى لأنّها لغات حاملي علــم المدنيــة العصرية ومن ثمّة فإنّ أي أمّة تريد استثمار هذا العلم لا بد لها " أن تكون عالمة بلغة حية من لغات أوربا، وكلّ أمّة جهلت جميع اللّغات الغربية فإنّها تبقى في عزلة عــن هــذا العــالم مطروحة في صحراء الجهل والنسيان من الأمّم المتمدنة التي تتقدم في هذه الحياة بســرعة لم يسبق لها مثيل"[28]، وفي إطار إصلاح التعليم الديني يرى " **الزواوي**" ضرورة توحيد التربية والتعليم والرجوع إلى مذهب السلف لأنّ " توحيد التربية والتعليم في الأمّة كالتوحيــد في الإسلام (العقيدة، أي يلزم أن يوحد الله جلّ شأنه، ولكن على ما جاء به "**محمد**" ﷺ ومــا كان عليه أصحابه قبل حدوث الفرق التي بلغت ثلاث وسبعين والتي قال فيها ﷺ [كلّها في النّار إلاّ ما عليه أنا وأصحابي]"[29]، وهدف " **الزواوي**" من رؤيته الإصلاحية هذه مــن وراء توحيد التربية والتعليم هو توحيد أفهام الأفراد وإرجاعها إلى أصل واحد هو كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ قصد توحيد الأمّة وإنقاذها من مهاوي الفتن العمياء وقد عرض الكاتــب أمثلة تاريخية حول اختلاف مناهج التربية والتعليم بين المسلمين وما نتج عنها من أســباب التفرق بينهم فمكنوا عدوهم منهم.

و إلى جانب هذه المقالات الهادفة إلى إصلاح التعليم كتب "**أحمد بن أبي زيد الأغــواطي**" مقالاً استعرض فيه حالة التعليم في الجزائر وما يعانيه من فوضى واضطراب انعكس على الأمّــة بالضعف والتقهقر " إذ أنّ اختلاف برامج التعليم في الأمّة الواحدة دليل على ضعفها وتقهقرهــا وهو من أعظم الآفات وأخطرها على وحدة الشعور التي يجب أن تسود البلاد والتي إذا افتقدت

فقدت معها قوة الشعب الأدبية وحلّ محلّها الشقاق وكثرة المذاهب والآراء التي من شأنها أن لا تعود بكبير فائدة على الشعوب الهزيلة المحتاجة إلى التغذية الأصلية مثل شعوب شمال إفريقيا وبالأخص الشعب الجزائري"[30]، ودعا في آخر مقاله إلى وجوب إصلاح هذا الوضع في التعليم بأن تهتم جمعية العلماء المسلمين به وبشؤونه اهتمامًا عظيمًا وبتكوين لجان من كبار العلماء المختصين بشؤون التعليم لدراسة وضعه والعمل على إصلاحه وتتبع العملية في ذلك والاستفادة من تجارب وأساليب التعليم من الدول العربية.

و من خلال هذه النماذج التي اخترناها من جريدة "**الشهاب**" نلحظ بأنّ المقالة الإصلاحية قد عنيت بموضوع الإصلاح في التعليم لما يمثله هذا العنصر من أهمية بالنسبة للأمّة لأنّه:

1. يحافظ على هويتها وشخصيتها.
2. يوحد طاقاتها وشعورها.
3. يدفع بها نحو مواكبة الحضارة العصرية.
4. يخرجها من دوامة الاضطراب العقائدي والفكري

كما اهتم الفكر الإصلاحي الذي جسدته "**الشهاب**" بموضوع المرأة لما تمثله من أهمية في بناء الأسرة ومن ثمّة بناء المجتمع، فعملية الإصلاح في المجتمع لا يمكن لها تحقيق النجاح إلاّ إذا عنيت بجميع المسارات الاجتماعية من الشباب والمرأة والتعليم وأحوال المجتمع بصفة عامة. وقد لاحظنا من خلال المقالات المنشورة فيها أن المقاليين ركزوا في جانب إصلاح المرأة على وجوب تعليمها، لأنّ الآفة الكبرى التي كانت تعاني منها هي الجهل، فالجهل هو سبب تأخرها وتخلفها وتدهور وضعها.

و من أولى المقالات التي كتبت في "**الشهاب**" بخصوص إصلاح وضع المرأة في المجتمع مقالة لـ"**أبي صالح عبد السّلام**" بعنوان: "**أيستحب تعليم المرأة وترشيدها**" وترجمه إلى العربية "**عبد العزيز الزناقي**" ويفتتح مقاله بتبيان مكانة المرأة في المجتمع الإنساني فهي العائلة

والأمّة وهي الخليقة التي نحن بأشد الحاجة إليها لحفظ النوع الإنساني وتهذيب أخلاقه وحتى تتمكن المرأة من أداء مهمتها السامية في المجتمع فعلى هذا الأخير أن يراعيها ويهتم بها من خلال تعليمها وتأديبها بلسان قومها أولاً ثمّ بلغات غيرهم وهذا لأنّ لغة قومها تحفظ لها كيانها وشخصيتها " إلاّ أنّ حتى الآن اعتمادًا على ما استفدناه بالتجريب نعلم ونجزم أنّ تعليم المرأة إذا لم يكن بلسان قومها بلغت من درجات العلم ما بلغت يكاد ذلك يضلها عن الصراط المستقيم الذي أراد أهل الخير سيرها عليه ما لم يوضع لسان عام يقع به التفاهم بين بني آدم أجمعين.[31]، وبرّر صاحب المقال دعوته إلى تعليم المرأة بلغة قومها أولاً لخشيته على فسادها " وإنّي لمن الرجال الذين لهم رغبة قوية في تعليم النساء لكن بلغة أمهاتهن وبمقتضى آداب الدين والدنيا وهي أخلاق لا يمكن رسوخها في عقولهن بلغة أجنبية دون أن يخشى عليهن الفساد"[32]. ويستوقفنا مقال آخر بتوقيع كاتبٍ كبيرٍ بعنوان: "**الفتاة أو المرأة الجزائرية وما لها من حقوق على الرجل وماله نحو نفسه في الحالة الراهنة**" يقف في إحدى محطاته عند طبيعة التعليم الذي يجب أن تتعلمه المرأة حتى يؤهلها إلى القيام بوظيفتها المقدسة في مجتمعها مع محافظتها على عاداتها وتقاليدها "إنّنا نحتزئ من المرأة الجزائرية في الحالة الراهنة بشيء واحدٍ، ألا وهو إعدادها لأنّ تكون إمّا ذات ثقافة دينية، وذلك بإنارة ذهنها إنارة صحيحة، وتعليمها ما هو من مهامها دينيًا ومنزليًا تعليمًا متمشيًا مع الحشمة والعفاف والصيانة لتعد لنا بما تبذل من العناية والسهر على صحة فلذات الأكباد وتربيتهم نسلاً صالحًا للعمل باعتبار أنّ ذلك أشرف مهمة خصت بها المرأة في هذه الحياة وأقدس واجب عليها في هذه البلاد بالأخص. إلاّ أنّ الوصول إلى هذه الغاية الإصلاحية لا بد له من توفر الوسائل الفعالة والإعداد المحكم لمحاربة الأميّة عند الرجال والنّساء، فأمية الرجل تعد عائقًا أمام الوصول بالمرأة إلى أداء وظيفتها السامية"[33] وحتى تعلم المرأة قداسة وظيفتها وسمو مهمتها وخطورة مكانتها في المجتمع لابد على المجتمع أن يعلمها إذا أراد التطور والتقدم، وهذا ما توصل إليه الكاتب المصري "**فريد وجدي**" في مقال نشرته له "**الشهاب**" بعنوان: "**حجاب المرأة وتعليمها**" "لم تخلق المرأة لتستعبد فيجب عليها أن تجاهد لنيل حريتها المعتدلة، ولكن بأي سلاح؟ سلاح وهبها الله إياه ليس من جنس سلاحنا، وليس

في مكانتنا أن نقابلها بمثله، ولكنها مع الأسف غافلة عنه ولا تفكر فيه، وليس ذلك السلاح إلاّ معرفتها خطورة وظيفتها وسمو مقام الهبة التي منحتها، والعمل على حسن التصرف فيها، هذا السلاح يجعلها موضوع التجلّة والاحترام، ومحل الإجلال والإعظام لأنّها تعتبر عندئذٍ مالكة لازمة الاحساسات وسلطانة على منازع الطباع."[34].

و في مقال لـــ"**ابن باديس**" بعنوان: "**الرجل المسلم الجزائري**" خصصه لإصلاح الفرد الجزائري المسلم بالتعليم والتهذيب والمحافظة على الهوية الجزائرية الإسلامية والتمسك بها حرص فيه على أنّ التعليم لابد أن يشمل الجنسين فقد رأى أنّ الاشتغال بموضوع تعليم المرأة لا يجدي نفعًا إذا كان الرجل يتخبط في دياجير الجهل، فتعليم الرجل هو المسلك الصحيح لتعليم المرأة " إذا أردتم التفكير الصحيح والإصلاح المنتج ففكروا في قبلها فأنا أبوها، وزوجها، ووليها، ومصدر خيرها وشرّها"[35]، واختصر "**ابن باديس**" في مقاله الخوض في مسألة حجاب المرأة ورأى بأنّ الحجاب الحقيقي الذي يجب أن يرفع عن المرأة هو حجاب الجهل وليس حجاب الستر وعلّل ذلك بقوله: "فإنّ حجاب الجهل هو الذي أخرها أمّا حجابها فإنّه ما ضرها في زمان تقدمها فقد بلغت بنات بغداد وبنات قرطبة وبنات بجاية مكانًا عليًا في العلم وهن متحجبات، فليت شعري ما الذي يدعوكم اليوم إلى الكلام في كشف الوجوه قبل كلّ شيء"[36]، ووضع "**ابن باديس**" أسس إصلاح المرأة وحصرها في العناصر الآتية:

1. تعليمها كلّ ما تحتاج إليه للقيام بوظيفتها وتربيتها على الأخلاق النسويّة.
2. تعليمها العلوم التي تكون بها مسلمة وتعريفها من طريق الدين ما لها وما عليها.
3. تعريفها حقائق دينها ولغتها وقوميتها لتلد نسلاً يحافظ على أمانة الأجيال الماضية للأجيال الآتية ولا ينكر أصله ولا يتنكر لأمّته.

و رأى في آخر مقاله بأن الطريق الموصل إلى إصلاح الرجل والمرأة معًا هو التعليم " تعليم البنات تعليمًا يناسب خلقهن ودينهن وقوميتهن، فالجاهلة التي تلد أبناء للأمّة يعرفونها مثل أمهاتنا عليهن الرحمة خير من العالمة التي تلد للجزائر أبناء لا يعرفونها، تعليم كلّ واحدٍ

لأهله بما عنده من علمٍ"[37]، وهذه الفقرة الأخيرة ردٌّ مفحمٌ عن "**ابن باديس**" للمتفرنسين الذين يريدون أن يزجوا بالبنت الجزائرية في أتون المدنية الغربيـــة، وفيـــه تعـــريض مريـــرٌ بالمتفرنسين أنفسهم كذلك.[38]، كما نجد "**ابن باديس**" يتعرض لموضوع المرأة في مقـــام المقالة الإصلاحية الدينية، وقد استخلص ذلك من قوله ﷺ مخاطبًا "**الشفاء بنت عبـــد الله القرشية**" التي كانت علمت "**حفصة**" بنت "**عمر بن الخطاب**" ﷺ الكتابة " ألاّ تعلمـــين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة"[39]، وجاء في قوله في آخر مقاله بعد عرضـــه لهـــذا الحديث " فاستنادًا إلى هذه الأدلة وسيرًا على ما استفاض في تاريخ الأمّة، مـــن العالمـــات الكاتبات الكثيرات علينا أن ننشر العلم في أبنائنا وبناتنا، في رجالنا ونسائنا، على أســـاس ديننا وقوميتنا إلى أقصى ما يمكننا أن نصل إليه من العلم الذي هو تراث البشـــرية جمعـــاء، وثمار جهادها في أحقاب التاريخ المتطاولة، وبذلك نستحق أن نتبوأ منزلتنا اللائقة بنا والتي كانت بين الأمم"[40]، كما تعرض "**ابن باديس**" لهذا الموضوع في مقال بعنوان "حق النساء في التعلم" وهو بصدد شرحه لحديث الرسول ﷺ عن "**أبي سعيد الخدري**" ﷺ: [قالـــت النساء للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يومًا من نفسك، فوعدهن يومًا لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن، فكان فيما قال لهن: ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلاّ كان لهـــا حجابًا من النّار، فقالت امرأة: واثنتين فقال: واثنتين][41]، استخلص في آخره حق النســـاء في التعلم وإقرار النبي ﷺ لهن بذلك.

و في مقال آخر لمؤرخ الجزائر "**مبارك الميلي**" بعنوان: "**تعليم المـــرأة الكتابـــة**" رأى وجوب تعليمها وسرد جملة من الحجج في ذلك منها:

1. إنّ فساد القلوب وانحطاط العقول كانا شاملين للأمّة ذكورها وإناثهـــا، فيجـــب أن يكون إصلاح القلوب وترقية العقول عامين في الذكور والإناث.
2. وأنّ المرأة شقيقة الرجل في الإنسانية فلتكن شريكته في التربية والتهـــذيب ولا تظلـــم بحرمان حقها في ذلك.

3. و أنّ الأم هي المدرسة الأولى التي يتلقى فيها الأبناء معلوماتهم الأولية التي تصير كطبيعة لهم، فعلينا أن نصلح هذه المدرسة لتهيئ لنا أبناء لا يتعاص عليها إصلاحهم.[42].

و هكذا نلاحظ بأنّ الفكر الإصلاحي الذي عالج موضوع المرأة ركّز بالدرجة الأولى على تعليمها وإخراجها من جهلها، لأنّها إذا تعلمت عرفت ما لها وما عليها، وفقهت وظيفتها السامية في مجتمعها، وتطلعت إلى بناء مجتمع راقٍ ومتمدن، ولن يتم لها ذلك إلاّ إذا أعطيت فرصة التعليم لأفراد المجتمع جميعهم فيحصل التكامل بينهم.

وإلى جانب موضوع المرأة ركّز الفكر الإصلاحي على لبنة أساسية في عملية الإقلاع الحضاري لأي أمّة وهي لبنة الشباب الذي يُعدُّ رجاء الأمة ومستودع أمانيها تعدهم لحمل الأمانة وصونها، والحفاظ على مكاسبها وسؤددها ومجدها، وهو العمود الفقري لأي نهضة ترجوها الأمّة فبعقولهم وعزيمتهم وسواعدهم تبنى الحضارات، وتشيد المدنيات، وتجسد ذلك من خلال المقالات التي كانت تنشر في "**الشهاب**"، ومن المقالات التي اهتمت بإصلاح الشباب مقالة للشيخ "**عيسى بن صالح**" أكدّ في بدايتها على أهمية تربية النشء تربية صحيحة لأنّه " من أجل الوسائل قدرًا وأعظمها نفعًا لانتشال الأمّة والأخذ بيدها من حضيض الدناءة إلى روح الفلاح وصهوة النجاح[43]، ورأى بأنّ هذه التربية الصحيحة تقوم على:

1. سنن العدل ومقتضى الشرح ومنهج الاستقامة.
2. التعود منذ الصغر على الأشغال والتجلد على المشاق.
3. التدرب على اكتساب فضائل الرجال وهمة الأبطال ومنها الشهامة والإباء وعزة النفس.
4. تغذية العقول بالعلم النافع والالتزام بأمور الدين وواجباته قولاً وفعلاً.
5. معرفة الأهداف التي من أجلها خلق الإنسان.
6. تمثيل الفضائل ونبذ الرذائل.

و للوصول إلى تربية النشء تربية صحيحة رأى وجوب وجود مربين مخلصين متنكبين عن مهاوي الأغراض مندفعين بعوامل الغيرة على الدين والوطن قد انتعشوا بروح الشمم وارتضعوا

من ألبان المعارف والتقوى رائدهم الإخلاص وغايتهم السعادة [44]، والكاتب إذ يبين أصول التربية الصالحة للنشء فقد انطلق من واقع رأى فيه أنّ التعليم المعمول به عقيم لا يؤدي بالناشئة إلى ما تصبوا إليه الأمّة من وراء تربيتها لأبنائها " وإنّي لتعروني هزة في الفؤاد وحرقة تذيب الجماد عندما أشاهد تلك النابتة تتقلب في ذلك التعليم العقيم وتتسكع فيه ثمّ يدفعها تيار الغفلة إلى مسارح الإهمال فتنغمس في حمأة الشرور والمنكرات فتموت تلك الخواطر وتسكن تلك الهمم وتفتر تلك العزائم وتفسد تلك الاحساسات فهل؟ فهل؟"[45].

ومن الجوانب الإصلاحية التي اهتم بها بعض المقاليين في "**الشهاب**" إصلاح أفكار بعض شباب الأمّة الذين تنكروا لدين أمتهم ولغتها وانساقوا وراء أفكار الغرب بسبب جهلهم للدين الإسلامي ولغته وقد كتب "**حسن وارزقي**" مقالاً بعنوان "**الشباب اللاديني المقلد**" هدف من وراءه إصلاح أفكار بعض الشباب المتنكرين لأصول أمتهم " أيها الإخوان المخطؤون أنّنا نأسف كثيرًا لاعتقادكم أن دين الإسلام مقيد للأفكار ومنافٍ للتمدن ونفهمكم أن الإسلام دين الفطرة دين الحرية أو دين المساواة يحترم المفكرين ويأمر بالتفكير في قوله تعالى: ﴿ **قُل إنَّمَا أعِظُكُم بِواحِدَة أن تَقُومُوا لله مَثْنَى وفُرَادَى ثُمَّ تتَفَكَرُوا**﴾ دين الإسلام دين جمع كلّ المحاسن والكمالات"[46]، ثمّ نجد صاحب المقال لا يرمي بلائمته على هذه الفئة من الشباب وإنّما يجد سبب ابتعادها عن حضيرة عقيدتها ولغتها يعود إلى الأباء " ونفهمكم أيضًا أيها الإخوان الغالطون أنّه لو تمسك بالإسلام آباؤكم وأفهموكم مبادئه الشريفة بلغته العربية لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه اليوم ولما وصفتموه أنتم بما ينزهه عنه كلّ من يفهم حقيقته أرشدكم الله إلى معرفته والتمسك به"[47]، وكأننا بصاحب المقال يرى بأنّ إصلاح هذه الأفكار سبيله التعليم الصحيح للناشئة القائم على مقومات أمّتهم ونابعٌ منها.

و من الأساليب التي اعتمدتها المقالة في "**الشهاب**" لإصلاح انسياق الشباب نحو المدنية الغربية وانخداعه بها، هو الكشف عن حقيقتها وما يعيشه الغربي من اضطرابٍ وعدم استقرارٍ في جميع المناحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية حتى لا يرى وجهها الظاهري البراق الذي

يأخذ بالألباب فقط ولذلك وجدنا "**الشهاب**" تنشر مقالاً في هذا الموضوع كشفت من خلاله عن بعض مخازي المدنية الغربية من خلال أمثلة واقعية من فرنسا واليابان وأمريكا بقصد إقناع الشباب المنخدع بالرجوع إلى جادة صوابه في نظرته إلى الغرب ومدنيته فيصحح قناعاته حولها " وكأنّي بك تفضل أمام تلك المناظر المستبشعة أن توسم بالرجعي المحافظ على خلق الصيانة والعفة من أن تحمل اسم المدني الأنيق واللطيف لطافة ثوب الأفعى، وما أجدر ذوي الحصافة ممّن استهوتهم بهارج المدنية الخداعة أن يخففوا من غلوائهم، وأن يدركوا بأنّ المدنية هي الأخذ بسهم وافرٍ من علوم الحياة فحسب مع الاحتفاظ بخلق النزاهة، والوقوف عند الحد الذي حدده الإسلام، أمّا ماعدا ذلك فهو التوحش الذي يصمنا به من دأبهم تغميط حقوق الضعيف وحب الأثرة والسير مع حب الذات وتبرير الإباحية بكلّ وسيلة"[48].

و في مقال لـ"**ابن باديس**" خصص جزءاً منه للشباب أكد فيه بأنّ عمل الحركة الإصلاحية يستند إلى هذه الفئة إصلاحًا وعملاً، ووضح أن الفترة التي بدأت فيها المسيرة الإصلاحية كان وضع الشباب فيها مأساويًا " ولم يكن يوم ذاك من شباب إلاّ شباب أنساه التعليم الاستعماري لغته وتاريخه ومجده، وقبح له دينه وقومه وقطع له من كلّ شيء – إلاّ منه- أمله، وحقره في نفسه تحقيرًا، وإلاّ شباب جاهلٌ أكلته الحانات والمقاهي والشوارع...[49]، وكانت وسيلة الإصلاح لهذا الوضع الكارثي للشباب تأسيس الجمعيات والمدارس والنوادي وجعلها مراكز انخراط لهم تعليمًا وتثقيفًا وتوعية، وهذه الوسيلة يراها الكاتب "**علي بن علي الجمعي المدوكالي**" في مقال له بعنوان: "**تعليم الأولاد سعادة البلاد**" " فتأسيس المدارس لتعليم الصغار والكبار ممّن يقبل التعليم سبيل للخروج من الجهل لأنّهم رجال المستقبل وهم الذين سيتحملون على كواهلهم المسؤولية العظمى في خدمة الأمّة والبلاد وما ذلك إلاّ بتنوير أفكارهم وتثقيفها بالثقافة العلمية والآداب العربية" [50]، ومن الخطط الإصلاحية التي رآها صاحب المقال ناجعة لعلاج وضع الشباب المأساوي:

1. إسناد خطة المدارس لأساتذة قادرين على إدارتها ولهم الخبرة بطرق التعليم وكيفية تنظيمه للوصول إلى الغاية منه في إلحام المتعلم بأمّته وبلاده وما يجب عليه نحوهما.

2. إعطاء أهمية كبرى لتدريس التاريخ تدريسًا مفيدًا تؤدي بالمتعلم إلى دقة الملاحظة في كلّ شيء وتكون له قوة عقلية وقوة إدراك يتوصل من خلالها إلى غوامض الأمور وخفاياها.

و غاية الكاتب من هذه الخطة هو أن يتجه الشباب إذا شبّ عليها وعلى التربية الحسنة على طريقٍ واحد، متوحد في المبادئ والأفكار والآراء لا يثنيه عن عزمه شيء ويبتعد عن كلّ خلافٍ.

و هكذا ومن خلال ما سبق ذكره نستخلص ما يلي:

1. اهتمام الفكر الإصلاحي في "**الشهاب**" بإصلاح الوضع العام في البلاد خدمة للحركة الإصلاحية التي يعد "**الشهاب**" أحد أعمدتها ووسائلها.

2. أنّ أساس الإصلاح في إخراج الأمّة ممّا تتخبط فيه هو التعليم النافع الذي يحقق للأمّة آمالها في التقدم والازدهار.

3. أنّ إصلاح التعليم هو أساس الإصلاح، فيصلح به العلماء ومن ثمّة تصلح به الأمّة.

وهكذا نلاحظ بأنَّ الفكر الإصلاحي الجزائري في " **الشهاب**" قد عمل على مجابهة سياسة الاستعمار في الجزائر والتي استهدفت القضاء على مقومات الشخصية الجزائرية وعلى رأسها الإسلام واللغة العربية، ووأد ركائز النهضة في المجتمع الجزائري، كما ساهم في فضح سياسة المستعمر بتشخيص الواقع الجزائري، وتحديد أسباب تخلفه وترديه، ووصف العلاج والدواء لعلله وأسقامه.

**الهوامش**:

1- عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، 1983م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص. 154.
2- سورة المؤمنون الآية 15.
3- عبد الحميد بن باديس، دفاع الله عن المؤمنين، في الشهاب، ج 9، م 11، ديسمبر 1935، ص. 494.

4- عبد الحميد بن باديس، دفاع الله عن المؤمنين، في الشهاب، ج 9، م 11، ديسمبر 1935، ص. 494.
5- الشهاب، ج 3، م 13، ماي 1937، ص. 123-124.
6- المصدر السابق.، ع 105، م 3، ص. 97.
7- المصدر السابق، ج 2، م 6، مارس 1930، ص. 80.
8- المصدر السابق، ج 3، م 11، جوان 1935، ص. 162.
9- المصدر السابق، ع 60، م 2، ص. 394.
10- المصدر السابق، ع 28، م 1، ص. 551.
11- المصدر السابق، ع 123، م3، ص. 450.
12- المصدر السابق، ج 5، م 9، أبريل 1933، ص. 194.
13- المصدر السابق، ع 98، م 2، ص. 1090.
14- المصدر السابق، ج 12، م9، نـوفمبر1933، ص.475- ج13، م9، ديسـمبر1933، ص.515- ج1، م10، جانفي1934، ص.17ج3، م10، فيفري1934، ص.105ج5، م10، أفريل1934، ص.197-ج6، م10، ماي1934، ص.251-ج7، م10، جوان1934، ص.310.
15- المصدر السابق، ع 115، م 3، ص. 296.
16- المصدر السابق، ع 2، م 1، ص. 31.
17- محمد ناصر، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، 1983م، الجزائر، ط2، ص.39.
18- عبد الحميد بن باديس، في الشهاب، ج4، م14، جوان جويلية 1938، ص.290.
19- عبد الرحمن شيبان، مقدمة الشهاب، ج 16، ص. 23.
20- عبد الحميد بن باديس، إصلاح التعليم أساس الإصلاح، في الشـهاب، ج 11، م 10، أكتـوبر 1934 م، ص. 478.
21- عبد الحميد بن باديس، إصلاح التعليم أساس الإصلاح، في الشـهاب، ج 11، م 10، أكتـوبر 1934 م، ص. 478.
22- المصدر السابق.
23- المصدر السابق.
24- عبد الحميد بن باديس، إصلاح التعليم بجامع الزيتونة، في الشهاب، ع65، م 2، ص. 465.
25- عبد الحميد بن باديس، إصلاح التعليم بجامع الزيتونة، في الشهاب، ع65، م 2، ص. 465.
26- المصدر السابق.
27- الشهاب، ع47، م2، ص.212.
28- الشهاب، ع47، م2، ص.212.
29- الزواوي، توحيد التربية والتعليم، في الشهاب، ع 54، م 2، ص. 310.
30- أحمد أبي زيد الأغواطي، التعليم عندنا وحاجته إلى توحيد ونظام، فـي الشـهاب، ج 1، م 13، مـارس 1937، ص. 31.

31- عبد العزيز الزناقي، ايستحب تعليم المرأة المسلمة وترشيدها، في الشهاب، ع 104، م 3، ص. 71.
32- المصدر السابق.
33- كاتب كبير، الفتاة أو المرأة المسلمة، في الشهاب، ج 3، م 7، ص/ مارس 1931، ص. 163.
34- فريد وجدي، حجاب المرأة وتعليمها، في الشهاب، ج 11، م 8، نوفمبر 1932، ص. 530.
35- عبد الحميد بن باديس، الرجل المسلم الجزائري، في الشهاب، ج 10، م 5، نوفمبر 1929، ص. 491.
36- المصدر السابق.، ص. 491-492.
37- عبد الحميد بن باديس، الرجل المسلم الجزائري، في الشهاب، ج 10، م 5، نوفمبر 1929، ص. 496.
38- محمد ناصر، المقالة الصحفية، ص. 243.
39- رواه أو داوود وخرجه أيضا النسائي والبيهقي في السنن الكبرى والإمام أحمد.
40- عبد الحميد بن باديس، تعليم النساء الكتابة، في الشهاب، ج 3، م 15، أفريل 1939، ص. 112.
41- رواه البخاري.
42- مبارك الميلي، تعليم المرأة الكتابة، في الشهاب، ج 6، م 12، أوت وسبتمبر، 1936، ص. 254.
43- عيسى بن صالح، سعادة الأمة بتربية النشء، في الشهاب، ع 22، م 1، ص. 431.
44- المصدر السابق.
45- المصدر الساق.، ص. 432.
46- حسن وارزقي، الشباب اللاديني المقلد، في الشهاب، ع 134، م 3، ص. 672.
47- المصدر السابق.
48- كاتب كبير، حديثنا اليوم مع الشباب، في الشهاب، ج 6، م 8،، ص. 317.
49- عبد الحميد بن باديس، فاتحة السنة الرابعة عشرة، في الشهاب، ج 1، م 14، مارس 1938، ص. 2.
50- المصدر السابق، ص.10.